الجغرافيا كعلم بيئة بشري

د. تارونا بانسال

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

لطالما كانت الجغرافيا علمًا حيويًا ، مما يجعل من الطبيعي وجود آراء متباينة حول طبيعتها ونطاقها . ومع مرور الوقت ، ظهرت فروع عديدة للجغرافيا ، منها علم الفلك ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، والجيولوجيا ، والأرصاد الجوية ، وعلم البيئة ، وعلم الإنسان . إضافةً إلى ذلك ، تواجه الجغرافيا تحديات متجددة باستمرار نتيجةً لظهور مجالات بحثية جديدة ، ومراكز بحثية حديثة ، مما زاد من تعقيد نطاقها واتساعه . بعبارة أخرى ، اتسعت حدودها في بعض المناطق ، وانكمشت في مناطق أخرى ، وبالتالي ، شهد المجال الجغرافي تغيرات في الآونة الأخيرة .

وكما قال هارتشورن (١٩٣٩)، تسعى الجغرافيا إلى اكتساب معرفة شاملة بالتوزيع الجغرافي للعالم. يهتم علم الجغرافيا ، كعلم، بكيفية تواجد البشر على سطح الأرض، وتنظيم أنفسهم مكانيًا، واستخدامهم لموارد العالم رغم توزيعهم غير المتكافئ (جينسبيرغ، 1954). هذه النظرة جغرافية في جوهرها ؛ أما من منظور علماء البيئة ، **فتركز الجغرافيا البشرية على البيئة الطبيعية وعلاقة الإنسان بها** (ثيودورسون، 1959). وقد فصّل العديد من علماء البيئة العلاقة بين الجغرافيا وعلم البيئة . يشترك هذان العلمان في بعض الجوانب ، لكنهما يختلفان أيضًا . **يهتم علم الجغرافيا بشكل أساسي بدراسة العلاقة بين الموطن والعوامل الاجتماعية، أي ما يُعرف بالعلاقة المباشرة بين الإنسان وبيئته؛** بينما يركز علم البيئة على المجتمعات البشرية ، وعلى الإنسان وموطنه . وهذا يعني أن المكان، كمفهوم مركزي، مهم في الجغرافيا، بينما تحتل العملية الزمنية مكانة مركزية في علم البيئة. كما يختلف مفهوم المنطقة بين العلمين؛ فبالنسبة لعالم البيئة ، المنطقة وحدة متكاملة في البيئة الطبيعية ، بينما يراها الجغرافي نتاجًا للتواصل وتقسيم العمل . تُثبت المناقشة السابقة بوضوح أن علم البيئة البشرية يختلف عن الجغرافيا البشرية.

علاقة الجغرافيا بمجالات أخرى

يُمكن عد الجغرافيا، من خلال علم البيئة البشرية، مُساهمةً في معالجة مشكلة التداخل المزعوم مع بعض المواضيع الأخرى. ولتوضيح التفاعل بين الإنسان ونظام بيئي مُحدد، تتناول الجغرافيا عناصر مُختلفة من أشكال الأرض ، كالتربة والمناخ والنباتات ، وغيرها من العناصر المُشابهة ، وذلك من خلال قائمة مألوفة . مع ذلك ، لا يقتصر دور الجغرافيا على شرح أصل هذه العناصر البيئية وخصائصها وتطورها ، ولا على علاقتها ببعضها البعض ، بل تُركز على استجابات الأفراد لها ، بشكل فردي وجماعي . لم يكن من الواضح لي قط أن مجموعة من الحقائق والمبادئ تُنقل من علم إلى آخر . على أي حال ، لا يُمكن تعريف الجغرافيا بأنها علم البيئة البشرية ؛ فهي لا تُعنى بأصل أشكال الأرض وتطورها بشكل خاص أو عام ، بل بتكيف الإنسان مع هذه الأشكال المُتمثلة في عناصر البيئة الطبيعية . بمعنى آخر، ستكون اهتمامات الجيولوجيا والجغرافيا فيما يتعلق بأشكال الأرض متناقضة . وبالمثل، لن تهتم الجغرافيا، بوصفها علم بيئة بشرية ، بوصف خصائص وتوزيع فصول العالم المختلفة ، بل ستركز على علاقة الإنسان بالمناخ ، عادةً كعنصر من عناصر البيئة المعقدة . وبالتالي ، لن تتناول الجغرافيا علاقات النباتات والحيوانات في بيئتها الطبيعية ، بل ستؤثر على النباتات والحيوانات ، بالإضافة إلى عناصر البيئة الطبيعية التي تؤثر على الإنسان . في جوهر

الأمر، لن تلتزم الجغرافيا، بوصفها علم بيئة بشرية ، بالعلوم الفيزيائية ، والأرصاد الجوية ، وعلم النبات ، والفيزياء ، وعلم المناخ ، وعلم بيئة النبات ، وعلم بيئة الحيوان ، بل ستعتبرها علومًا مستقلة تمامًا .

علم البيئة البشرية كمجال جغرافي فريد

بدأت الجغرافيا الأمريكية الحديثة ، التي ظهرت مؤخرًا ، بفضل العمل الرائع الذي قام به ديفيس وجيلبرت وآخرون في الفيزياء أو الجغرافيا الطبيعية . ومن الحقائق اللافتة ، التي يجدر ذكرها ، أن الجغرافيا ، رغم كونها أصل الجيولوجيا ، قد حظيت، في الفترة الأخيرة التي شهدت انتعاشها في أمريكا كموضوع للدراسة العليا ، بدعم من الجيولوجيا . ففي العديد من الجامعات ، قُدِّمت مقررات الجغرافيا أولًا في قسم الجيولوجيا . ومع ازدياد هذا العمل ، تم تغيير المسمى الرسمي للقسم في بعض الحالات إلى "قسم الجيولوجيا والجغرافيا" . وما إن ترسّخت الجغرافيا الطبيعية ، حتى برز طلب ملحّ على ما يُسمى "الجغرافيا البشرية" . ولكن كما ذُكر سابقًا ، تختلف الجغرافيا البشرية عن علم البيئة البشرية .

تتناول الجغرافيا الإنسان وأنشطته في جوانبها الظاهرة ، وبقدر ما يمكن عدها ظواهر موزعة . وهي لا تُعنى ، إلا عرضًا، بالعلاقات المتبادلة بين البشر. يركز علم البيئة البشرية ، المهتم أيضاً بعلاقة الإنسان ببيئته الجغرافية ، على الترابطات البشرية التي تنشأ من تفاعل السكان مع بيئتهم . بعبارة أخرى، بينما تنظر الجغرافيا إلى تكيف الإنسان من منظور التغيرات التي تطرأ على سطح الأرض ، يُجري علم البيئة البشرية تحليلاً دقيقاً لعملية تنظيم العلاقات المتضمنة في التكيف مع البيئة . وهذا يقودنا إلى نقطة تمييز ثانية بين هذين المجالين . فالجغرافيا تُعنى بوصف الأشياء كما هي في لحظة زمنية محددة، إذ ينصب اهتمامها على التوزيع لا التطور . أما **علم البيئة** ، فهو تطوري ، إذ يسعى إلى وصف عملية التطور وشكل تكيف الإنسان مع بيئته (هاولي، 1950).

وقد ظهر مفهوم بيئي للجغرافيا قبل ذلك بكثير، بالطبع، لكنه لم يلقَ رواجاً كبيراً في أي مرحلة من مراحل تطور الجغرافيا كعلم قائم بذاته. اقترح راتزل، مستلهماً من الاستخدام البيولوجي لمصطلح "علم البيئة" ، أن علم الأنثروبولوجيا الجغرافية هو في جوهره علم البيئة البشرية . ومن وجهة نظره ، كما هو الحال في علم الأحياء ، يُعرَّف علم البيئة البشرية بأنه دراسة تفاعل الإنسان مع البيئة ؛ أي أنه ذلك الجزء من علم البيئة الحيوانية الذي يهتم بشكل خاص بالجنس البشري (نيلسون، 1936). وقد عزز باروز هذا المبدأ عام 1922 عندما أكد في خطابه الرئاسي أمام الجمعية الأمريكية للجغرافيين أن علم البيئة البشرية هو المفهوم الأساسي في الجغرافيا . بحسب باروز (1923): "بهذا التعريف، تُعدّ الجغرافيا علم البيئة البشرية.

وتُبيّن دلالات مصطلح "البيئة البشرية" بوضوح ما أعتقد أنه سيكون هدف البحث الجغرافي في المستقبل . ستسعى الجغرافيا إلى توضيح العلاقات القائمة بين البيئات الطبيعية وتوزيع الإنسان وأنشطته . وأعتقد أن من الحكمة أن ينظر الجغرافيون إلى هذه المشكلة عمومًا من منظور تكيف الإنسان مع البيئة ، بدلًا من منظور تأثير البيئة . فالنهج الأول يُرجّح أن يُفضي إلى إدراك جميع العوامل المعنية وتقييمها تقييمًا صحيحًا، ولا سيما تقليل خطر إسناد تأثير حاسم للعوامل البيئية لا تمارسه . " وأضاف ، مُعرّفًا الجغرافيا بأنها علم البيئة البشرية : "الجغرافيا هي علم البيئة البشرية... وستسعى الجغرافيا إلى توضيح العلاقات القائمة بين البيئة الطبيعية وتوزيع الإنسان وأنشطته. "

طبيعة علم البيئة البشرية

يُعدّ علم البيئة البشرية مجالًا حديثًا نسبيًا ؛ إذ استُخدم المصطلح لأول مرة في الأدبيات عام ١٩٢١. وظهر أول كتاب يحمل عنوان "علم البيئة" عام ١٩٣٥، ومن المثير للاهتمام أنه كان من تأليف عالم نبات . وخلال هذه الفترة القصيرة ، تطور علم البيئة بسرعة كبيرة . وعند الحديث عن علم البيئة البشرية ، يمكن الرجوع إلى تعريف ماكنزي (١٩٣١) الذي ينص على أن علم البيئة البشرية يُعنى بالجوانب المكانية للعلاقات التكافلية بين البشر والمؤسسات البشرية.

ويُعد علم البيئة البشرية ، من حيث اهتمامه بالنظام الاجتماعي القائم على المنافسة لا التوافق، مطابقًا ، من حيث المبدأ على الأقل ، لعلم بيئة النبات والحيوان . فالمجتمع، كما يتصوره علماء البيئة ، هو مجموعة سكانية مستقرة ومحدودة في بيئتها . والروابط التي تجمع وحداته الفردية هي روابط اقتصاد حر وطبيعي ، قائم على تقسيم طبيعي للعمل . هذا النوع من المجتمعات منظم إقليميًا ، والروابط التي تجمعه مادية وحيوية وليست عرفية أو أخلاقية . مع ذلك ، يتعين على علم البيئة البشرية أن يأخذ في الحسبان أن المنافسة في المجتمع البشري محدودة بالعادات والتقاليد . فالبنية الثقافية العليا تفرض نفسها كأداة للتوجيه والسيطرة على البنية الحيوية الدنيا . وإذا اختزلنا المجتمع البشري، بهذا المفهوم، إلى عناصره الأساسية، فيمكن القول إنه يتكون من سكان وثقافة ، تشمل **الثقافة** (أ) مجموعة من العادات والمعتقدات، و(ب) مجموعة مقابلة من المصنوعات والأجهزة التكنولوجية . إلى هذه العناصر أو العوامل الثلاثة - (أ) السكان، (ب) المصنوعات (الثقافة التكنولوجية)، (ج) العادات والمعتقدات (الثقافة غير المادية) - التي يتشكل منها المجتمع، ربما ينبغي إضافة عنصر رابع، ألا وهو الموارد الطبيعية للموئل.

إن تفاعل هذه العوامل الأربعة - (1) السكان، (2) المصنوعات (الثقافة التكنولوجية)، (3) العادات والمعتقدات (الثقافة غير المادية)، و(4) الموارد الطبيعية - هو ما يحافظ على التوازن البيئي والاجتماعي في آنٍ واحد ، أينما وُجدت . وتتمثل التغيرات التي يهتم بها علم البيئة في تحركات السكان والمصنوعات (السلع) ، والتغيرات في الموقع والمهنة - أي نوع من التغيير، في الواقع ، يؤثر على تقسيم العمل القائم أو علاقة السكان بالتربة . ويُعد علم البيئة البشرية ، في جوهره ، محاولةً لدراسة العمليات التي يتم من خلالها الحفاظ على التوازن البيئي والاجتماعي (1) بمجرد تحقيقه، و(2) العمليات التي يتم من خلالها، عند اختلال التوازن البيئي والاجتماعي، الانتقال من نظام مستقر نسبيًا إلى آخر.

يقبل عدد من الجغرافيين البشريين تعريف علم البيئة البشرية بأنه دراسة العلاقات المتبادلة بين الإنسان والبيئة ، لكنهم في الواقع حصروا تطبيقه في مجال متخصص من الدراسات الجغرافية . بل إن بعض الجغرافيين ، مثل باروز ورينر ووايت ، يجعلون من علم البيئة البشرية مرادفًا للجغرافيا البشرية. وقد كتب باروز ، أول جغرافي ينشر وجهة النظر هذه ، ما يلي: "... لقد تحول مركز الثقل في المجال الجغرافي تدريجيًا من الجانب المادي المتطرف نحو الجانب البشري ، حتى بات عدد متزايد من الجغرافيين يُعرّفون موضوعهم بأنه يقتصر على دراسة العلاقات المتبادلة بين الإنسان وبيئته...". أما وايت ورينر، اللذان يحمل كتابهما عنوان "الجغرافيا : مدخل إلى علم البيئة البشرية" ، فيحصران هذا المجال في دراسة العلاقات المباشرة بين الأفراد أو الجماعات وبيئاتهم .

ويبحث هذا المجال المتخصص في مشاكل علاقة الإنسان ببيئته ، فرديًا وجماعيًا ، مثل (أ) تأثيرات المناخ على صحة الإنسان وطاقته؛ (ز) تأثير الموارد والتضاريس على المهن البشرية، والمساكن ، والمؤسسات ، والاختراعات؛ (3) تأثير الطرق والحواجز الطبيعية على العزلة الاجتماعية والتواصل؛ و(4) التأثيرات المحتملة للبيئة الطبيعية على العادات ، والاتجاهات ، والمعتقدات . وبالتالي ، فإن هؤلاء الجغرافيين البشريين، الذين يُعرّفون علم البيئة البشرية كمجال علمي متخصص ، يختلفون بشكل واضح مع بيوز الذي يعده توليفة شاملة . ويمكن تعريف علم البيئة البشرية ، كغيره من العلوم المتخصصة ، وتحديد نطاقه من

خلال المفاهيم المجردة الأساسية التي يقدمها . وعلى وجه الخصوص ، يُجرّد علم البيئة البشرية (أ) نوعًا مميزًا من التفاعل البيئي، و(ب) جانبًا مميزًا من بنية المجتمع أو المنطقة ينشأ عن هذا التفاعل.

باختصار، يمكن تعريف علم البيئة البشرية مبدئيًا بأنه مجال تحليلي متخصص يبحث في (أ) الجوانب الاجتماعية الفرعية غير الشخصية للبنية المجتمعية - المكانية والوظيفية على حد سواء - التي تنشأ وتتغير نتيجة التفاعل بين البشر عبر موارد بيئية محدودة ، و(ب) طبيعة وأشكال العمليات التي تنشأ وتتغير من خلالها هذه البنية الاجتماعية الفرعية . وتعتمد قيمة علم البيئة البشرية على صحة وأهمية مفاهيمه المتخصصة المجردة ، وليس على دوره في توفير مؤشرات للحياة الاجتماعية .

الخلاصة

على الرغم من أن الجغرافيا التقليدية قد فقدت العديد من التخصصات ، إلا أنها ما تزال تحاول تغطية نطاق واسع للغاية ، ومن الواضح أنها ستستفيد من الفيزياء ، وعلوم المناخ ، وعلم البيئة النباتية ، وعلم البيئة الحيوانية ، إذ أن دمج هذه العلوم المنظمة مع الجغرافيا سيجعلها أكثر تخصصًا . إن العلاقات بين الإنسان والأرض، والناتجة عن جهودهما للبقاء ، هي في الغالب الأكثر مباشرة وحميمية ؛ فمعظم العلاقات الأخرى تُبنى من خلالها . يُتيح علم البيئة البشرية مجالًا لدراسة التنظيم المكاني بدلًا من التمايز الجغرافي الذي أصبح منهجًا سائدًا في علم الجغرافيا. وهذه نتيجة إيجابية ، ولكنها في الوقت نفسه لا تخلو من أوجه قصور. فبحسب تشورلي (1973)، فإن النموذج البيئي التقليدي قاصر عن الإجابة عن التساؤلات المطروحة ، لا سيما أنه لا يُعطي الإنسان مكانته اللائقة ، بل يضعه في دور التابع .

أقرّ هاجرستراند هذا النهج في جغرافية الزمان والمكان عندما تحدث عن "نموذج شبكي للتفاعل بين الزمان والمكان" ، حيث أشار إلى أن هذا النهج يدمج بعض المحددات الحيوية والبيئية الأساسية ضمن الجغرافيا البشرية ، ويسعى إلى سد الفجوة بين البيئة البشرية والبيئية. وقد حصر مفهوم الجغرافيا كعلم بيئة بشري نطاق الجغرافيا ، إذ تجاهل تمامًا البيئة الاجتماعية والثقافية ، فضلًا عن علاقة الإنسان بها . ويركز هذا المفهوم فقط على مكونات البيئة المادية وعلاقة الإنسان بها . ويرى كيرك (1963) أنه إذا شمل هذا النهج العلوم البيئية والاجتماعية معًا ، فقد يُفضي إلى نقاشٍ ذي صلة بفهم علاقة الإنسان بالبيئة من منظورها.

https://ebooks.inflibnet.ac.in/geop06/chapter/geography-as-human-ecology/